عدد خاص

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية

المجلد التاسع - العدد الرابع - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

٤

القرن الخامس عشر الهجري

الأبحاث والدراسات

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تاريخ
فن العمارة العربية الاسلامية

الحلقة الثالثة

بقلم
شريف يوسف
بغداد ـ الجمهورية العراقية

الفترة الثالثة لتطور فن العمارة العربية الاسلامية

امتدت هذه الفترة من القرن الثالث عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر وفي خلال هذه القرون الثلاثة تعرضت الدول الاسلامية الى مخاطر جسيمة قاسيةواصابها العديد منالكوارث والنكبات المزلة . ففي سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م . استولى هولاكو على العراق وقضى على الخلافة العباسية فيها ، ثم اعقب ذلك مجيء الموجة المغولية الثانية بقيادة تيمورلنك فاكمل ما قام به سلفه من خراب ودمار . وسوف نستعرض هنا جميع هذه الحوادث والنكبات منذ ظهور المغول حتى زوال سلطتهم عن البلاد وما تركوه لنا من آثار عمرانية عندما استوطنوا في العراق ودخلوا في دين الاسلام الحنيف .

وفي هذه الفترة خسر العرب بلاد الاندلس وضاع ذلك الملك العظيم وهرب العديد من سكان البلاد الى شمال افريقية وقامت فيها دول عربية متعددة كان دورها كبيرا في اعمار البلاد والنهوض بها من مختلف المبادين السياسية والثقافية والعمرانية .

* * *

من المعروف ان المغول او التتر من الاقوام التي سكنت في تركستان ومنشوريا وقسما من سيبريا . وكان (توجين) الذي سمي فيما بعد بـ (جنكيزخان) بمعنى خان الخانات ، قد تولى قيادة قبيلته ثم اخضع معظم القبائل التترية لحكمه . وقد قويت شوكته عندما استولى على جميع بلاد ما وراء النهر ودحر جيوش السلطان محمد خوارزمشاه سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ، وامتدت مملكته من بلاد العجم الى الفولگا وافضى سواحل بحر الخزر .

تولى الحكم بعد وفاة جنكيزخان اولاده الاربعة وانقسمت مملكته الواسعة بينهم ، ويعرف ملوكها بـ (الخاقانات) والفرع الذي يهمنا شأنه هو فرع (هولاكو) حفيد جنكيزخان الذي استقل بمملكة ايله (طاوى : وملك فارس سنة ٦٥٤هـ وعرفت دولته بدولة (ايلخان : او مغول الفرس .

فتح بغداد

عندما استقر لهولاكو الملك في فارس حمل على بغداد واستغل ما كان فيها من منازعات طائفية وضعف سلطة الخليفة (المستعصم بالله) وعدم كفاءة جيشه . وصل هولاكو الى اسوار بغداد وقتل الخليفة ثم دخل المدينة وامر بقتل الرجال وسبي النساء واستباح النهب عدة ايام ثم نودي بالامان واصبحت بغداد في سلطة المغول سنة ٦٥٦هـ وتاسست فيها دولة (الايلخانية) نسبة الى لقب هولاكو (ايلخان) .

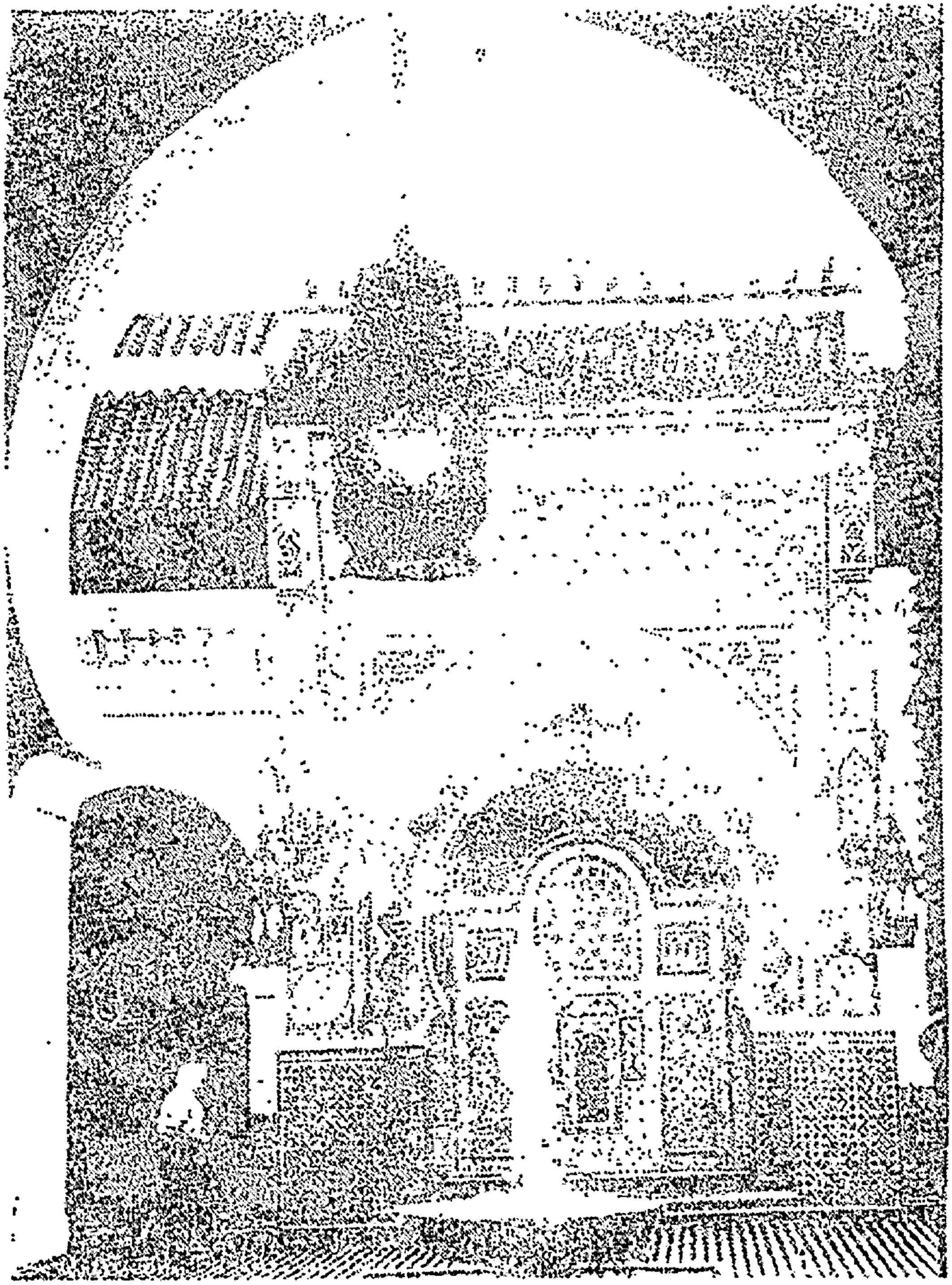

مدخل جامع ومدرسة القرويين و تراكمي انشائها (الطلبة القرى) فيها ٢٠٠ عمود يرفع سقف الحرم ومكتبة تضم آلاف الكتب والمخطوطات وقد اصبحت جامعة للدراسات الإسلامية .

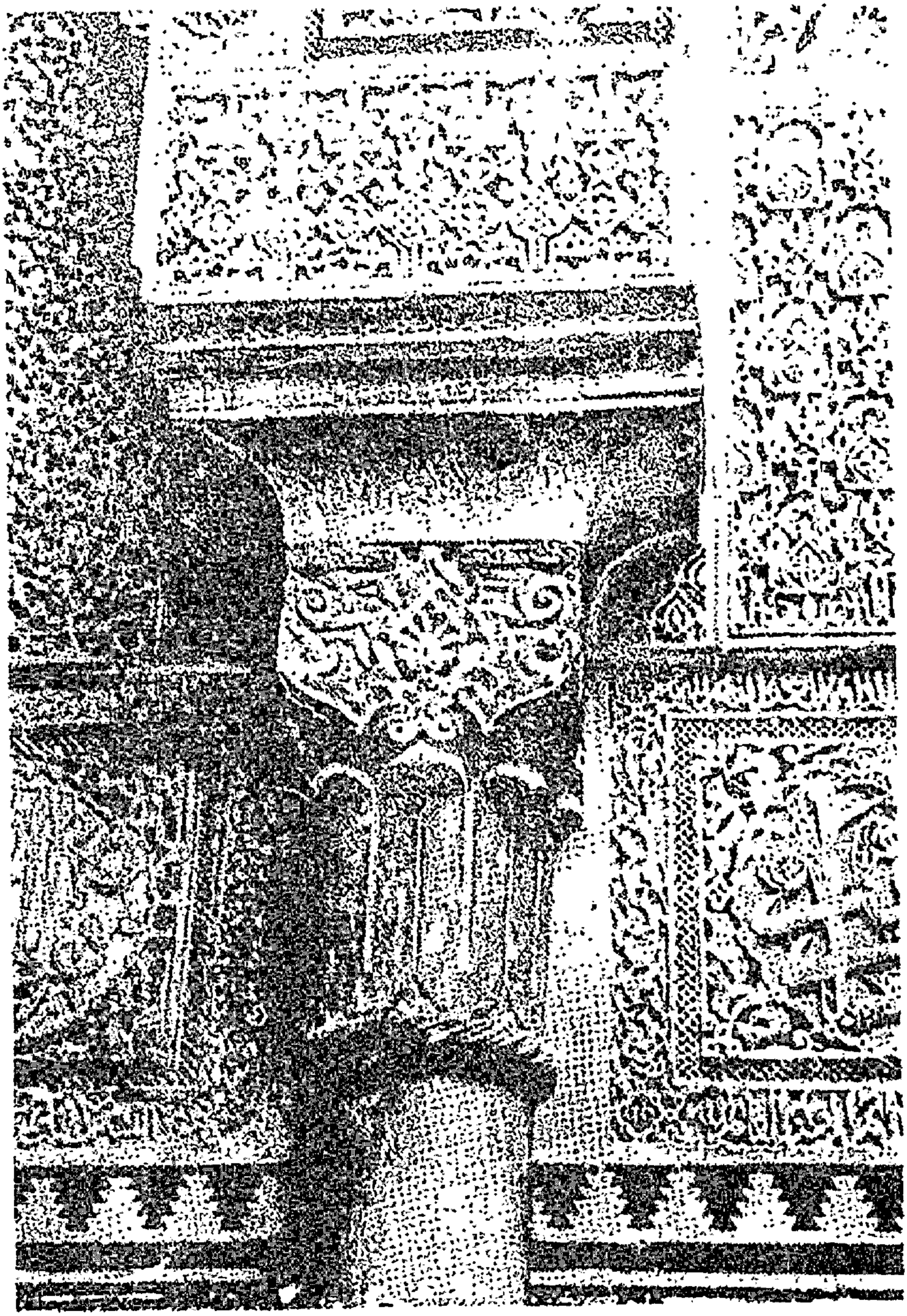

منظر داخلي لمدرسة العطارين في مراكش وهي تعد آية في الروعة في زخارفها ونقوشها

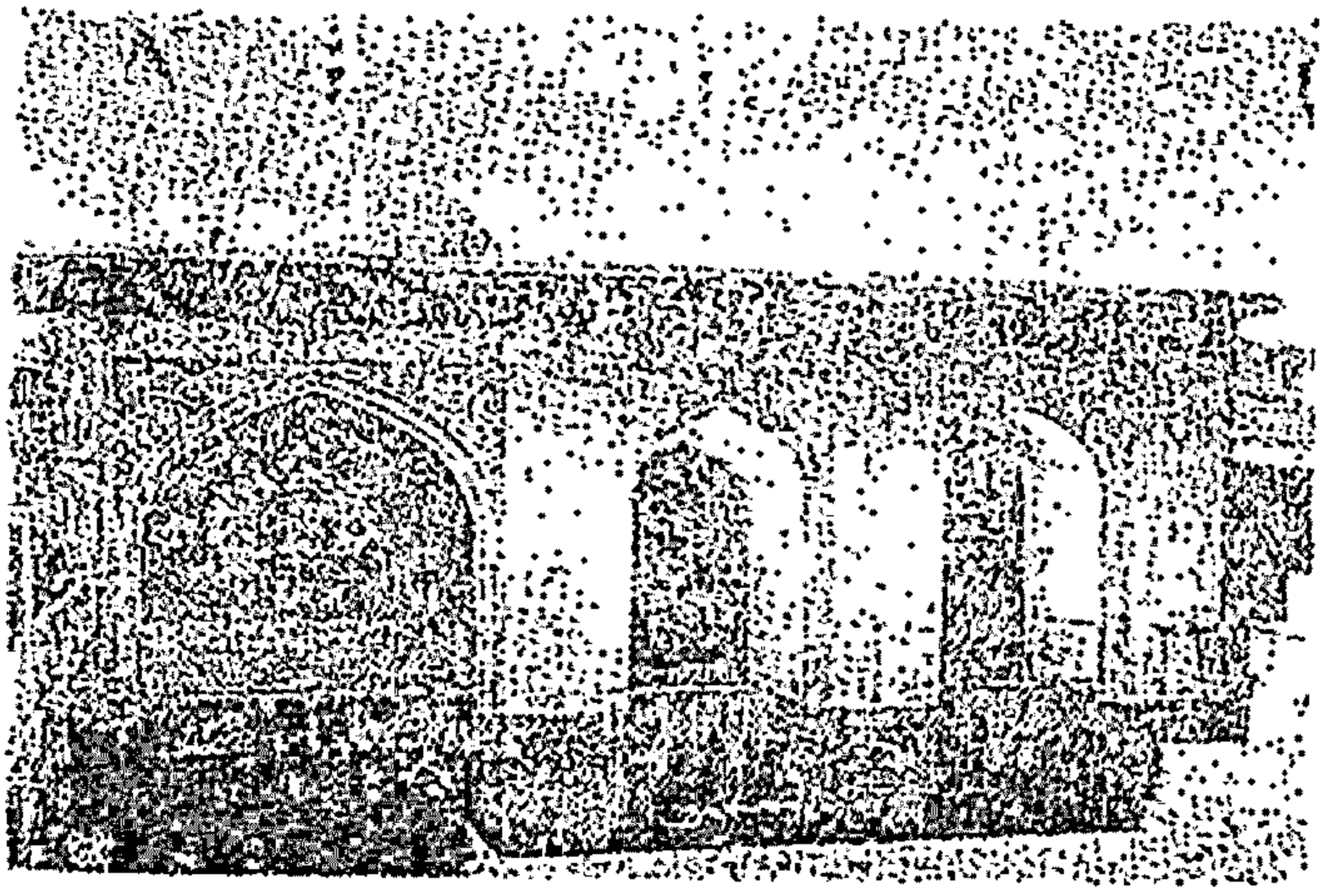

جامع السيد سلطان علي في بغداد . وكان (الشيخ علي) شقيق السلطان احمد بن حسين بن اويس . جدد عمارته السلطان عبدالحميد سنة ١٢٢١هـ واصبح الجامع زاوية للمتصوفة على طريقة احمد الرفاعي .

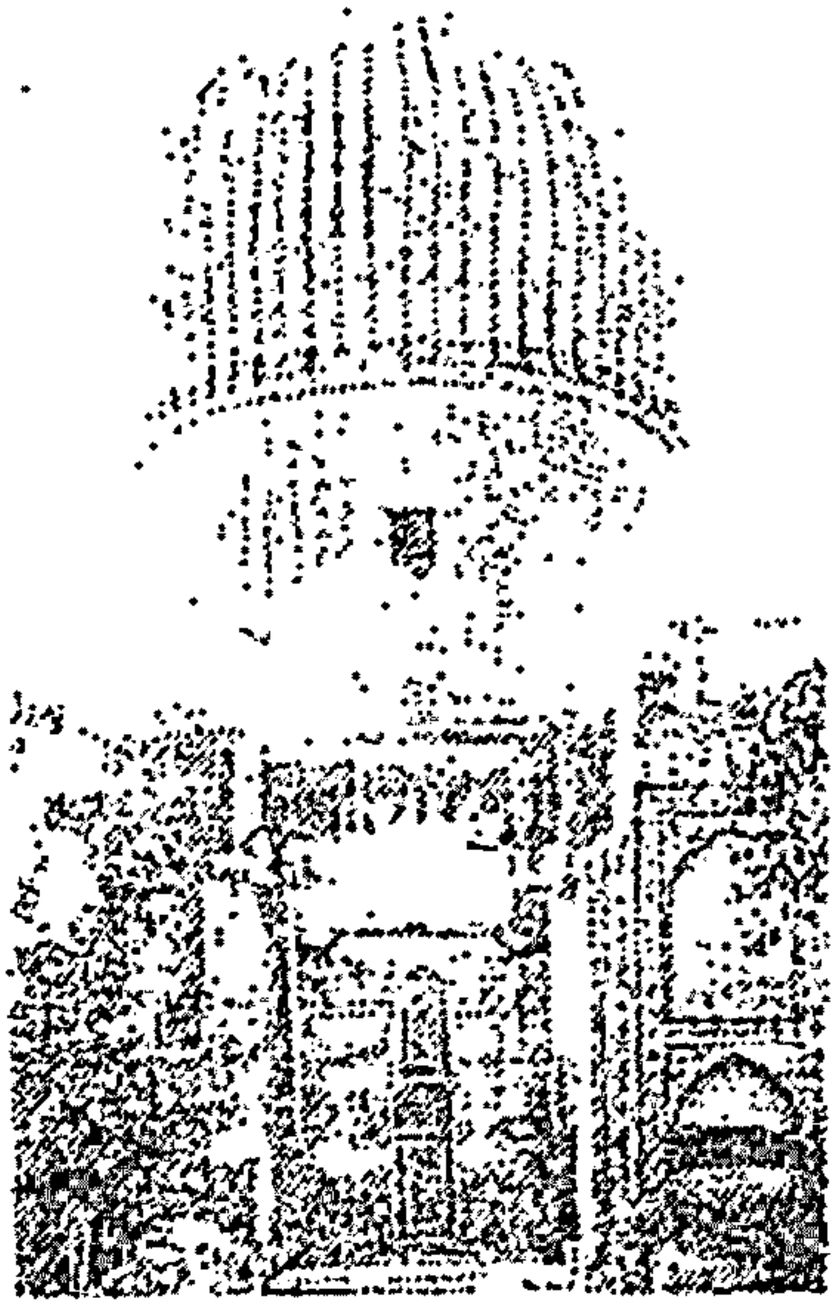

ضريح (كور امير) في سمرقند اخر منشآت تيمورلنك ليكون ضريحا لحفيده ـ (محمد سلطان) ثم دفن فيه تيمورلنك واولوغبك وغيرهما من ملوك التتر

مدخل المسجد الجامع في مدينة سمرقند
ـ زمياني العصر المغولي

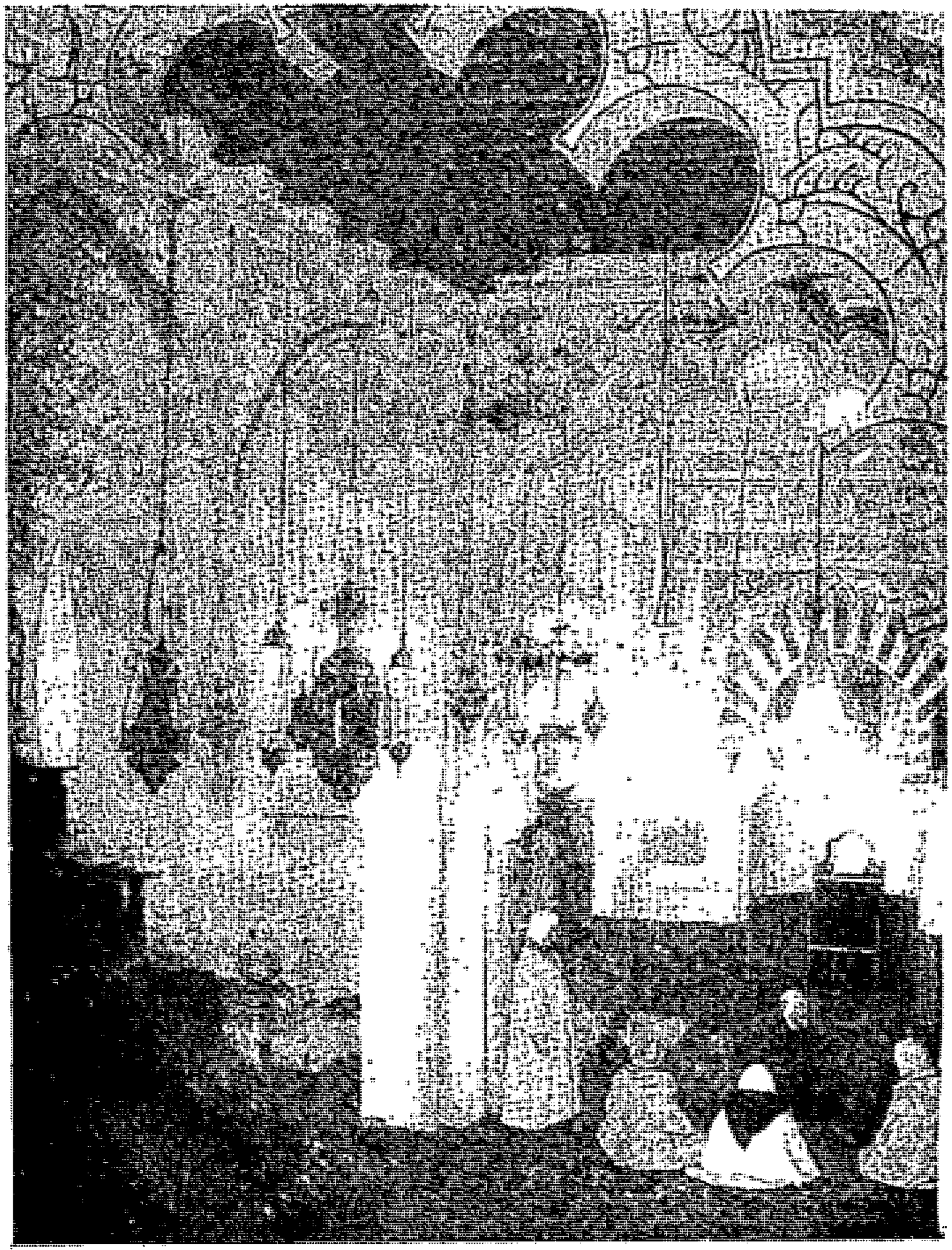

مدينة تلمسان مركز الاسلام الاول في الجزائر وجامعها الكبير قطعةرائعة من الفن الاندلسي بناه ابان حكم بغمراسن في القرن الخامس الهجري ووسعه علي بن يوسف ابن تاشفين .

مئذنة جامع الخلفاء (منارة سوق الغزل) في بغداد
انشئت في عهد الملك (ابافا بن هولاكو) وولاية علاءالدين
ملك الجويني سنة ٦٧٨هـ

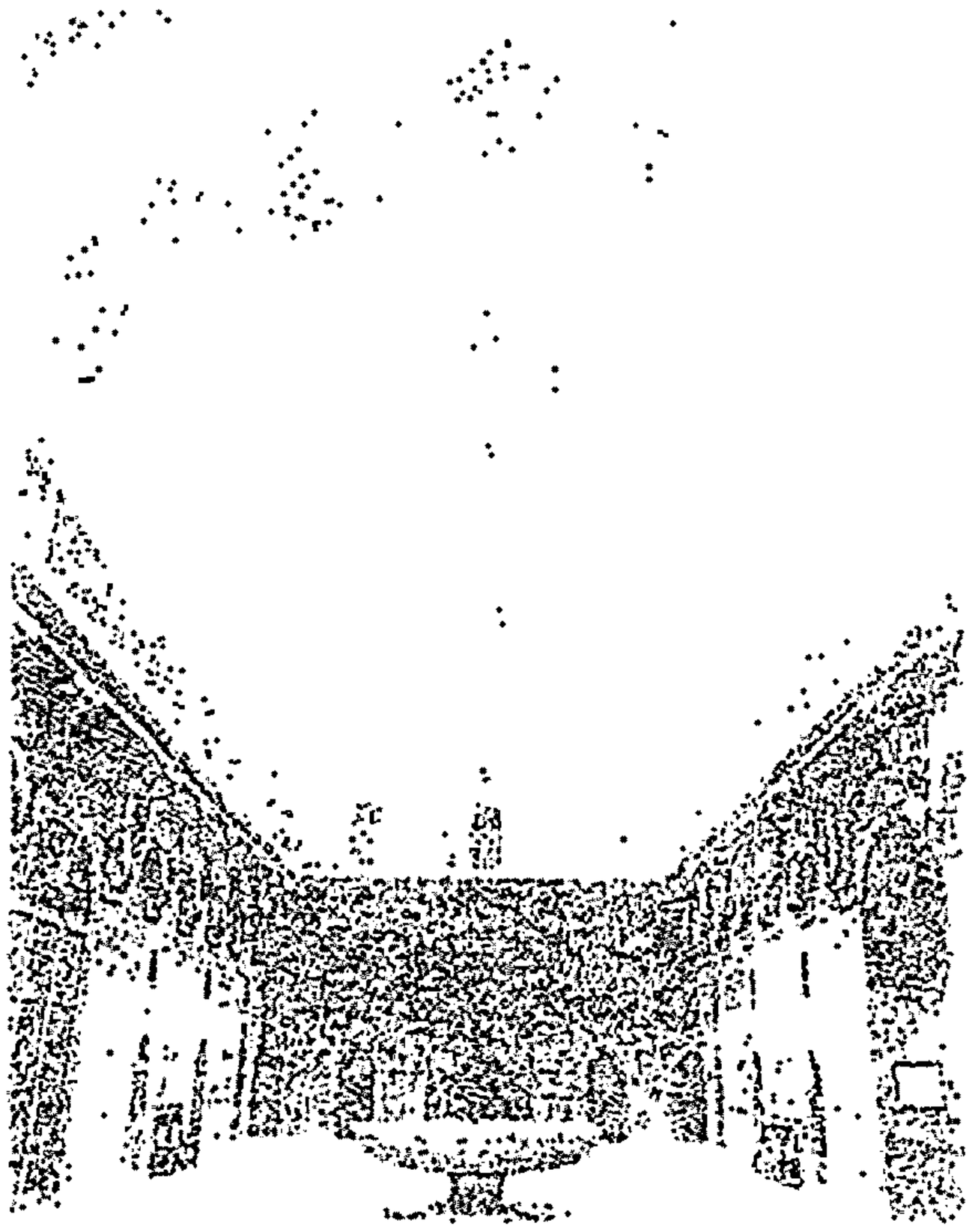

منظر داخلي لـ (خان مرجان) ويسمى (خان الاوزلمة)
تم انشاؤه في سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م في زمن (اويس بن الشيخ علي)
ثاني سلاطين الجلائريين شيده الخواجه مرجان الاولجايتي
ليكون وقفا لمدرسة مرجان واوقف عمارات اخرى لهذا الغرض .

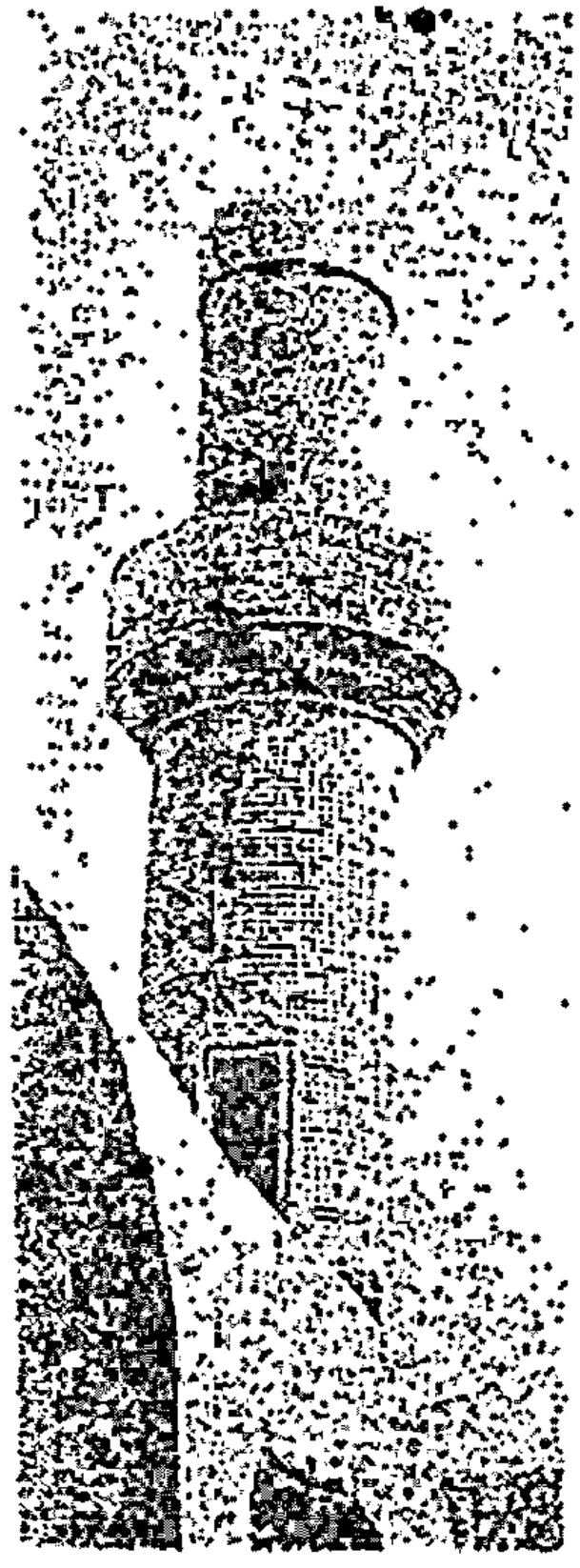

مئذنة جامع العاقولي في بغداد وكان ابن
العاقولي مدرسا في المدرسة المستنصرية
توفي سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٦م وضريحه قائم
في هذا الجامع

بعد هذا الفتح وجد هولاكو نفسه بحاجة الى من يدبر شؤون العراق فالف لجنة لتنظيم امور الدولة واصلاح ما خرب من المدينة وترميم اسواقها واعادة اعمال اهلها الى ما كانت عليه سابقا . ويبدو ان عبارات التخريب التي اوردها المؤرخون وما جرى لمدينة بغداد من دمار ايام الفتح مبالغ فيها لان المعالم الرئيسة للمدينة كقصور الخليفة والمدارس والجوامع والاسواق وغالب المحلات بقيت بدون ان يصيبها غير تخريب محدود امكن اصلاحه في وقت قصير .

عين هولاكو (علاء الدين عطا ملك الجويني) في منصب صاحب الديوان ، اي حاكما عاما في العراق ، واصبح اخوه (شمس الدين الجويني) رئيس وزراء الدولة الايلخانية . واستمر علاء الدين في منصبه ٢٢ سنة كان فيها القوي الشديد . وقد وضعت جميع الاوقاف الاسلامية في الدولة الايلخانية تحت اشراف (نصير الدين الطوسي) ، وانتقلت بعد وفاته الى ابنائه ؛ وكان هؤلاء يعينون نوابا عنهم لادارة اوقاف العراق والاشراف على تعمير المساجد والجوامع والربط والزوايا والمدارس . ومن اهم اثار هذا العهد مئذنة سوق الغزل التي هي من بقايا العهود العباسية . فعندما احترق جامع الخلفاء بسقوط بغداد على يد هولاكو جرى تجديد عمارة هذه المئذنة زمن علاء الدين عطا ملك الجويني صاحب الديوان في عهد (اباقا بن هولاكو) كما جرى تجديدها مرة اخرى في زمن الوالي (عطا ملك خدابنده) سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م .

سميت هذه المئذنة بـ (مئذنة سوق الغزل) لوقوعها في سوق الغزالات حيث يباع غزلين . وقد ذكر الرحالة (نيبور) في رحلته الى العراق سنة ١٧٦٥ م عن جامع الخلفاء فقال « قام المستنصر بتشييد جامع كان آية في الفن والجمال وذلك في المحلة المعروفة بمحلة سوق الغزل ولكنه لم يبق منه سوى منارته وواجهة سوره الذي يحتوي على مدخلين اتخذ احدهما فهوة متواضعة وشاهدت على هذا الباب كتابة تشير الى باني هذا الجامع وهذا نصها (امر بعمله سيدنا الامام المستنصر بالله امير المؤمنين اعلى الله تعالى معالم الاسلام بهمته العالية ، وارهى دعائم الايمان بابالته وذلك في سنة ٦٣٢هـ) ١٢٣٦م .

ومن المعلوم ان جامع الخلفاء كان موجودا قبل المستنصر وذكره ابن جبير في رحلته ؛ ومن المحتمل ان المستنصر قام بتعمير قسم من هذا الجامع او بابه . وقد بنى الوالي العثماني (سليمان باشا الكبير) المملوك سنة ١١٩٣هـ / جامعا صغيرا قرب المئذنة ووزعت البقية من ارض الجامع على الاهلين لبناء دور فيها . وقد هدم هذا الجامع سنة ١٩٥٧ لغرض فتح شارع الجمهورية وبني حول المئذنة جامعا جديدا بجميع مختلف انواع الزخرفة الاجرية .

ولهذه المئذنة الحلزونية قاعدة اثنى عشرية محيطها ٢١٫٦٤ مترا ، يقوم عليها شرفة ارتفاعها عن سطح الارض ٧٫٥٥ امتار ، تضم مدخلين يؤديان الى سلمين يدوران في باطن المئذنة الاسطواني باتجاهين متعاكسين وينتهيان من الاعلى بمخرجين في شرفة او حوض المئذنة الاعلى المزين من اسفله بمقرنصات متدرجة من الاجر ، ومن وسط هذه الشرفة ينحسر البدن الاسطواني وينتهي بقمة غير مدببة وبذلك يصبح ارتفاع المئذنة ٣٣ مترا تقريبا .

وفاة هولاكو وتولي خلفاؤه حكم العراق

توفي هولاكو سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٤م وخلفه ابنه (اباقا خان) ، وعندما توفي هذا سنة ٦٨١هـ خلفه اخوه (تاكودار) ودعا نفسه (احمد) وكان حسن السيرة ، وملك بعده (ارغون) الذي ولى على وزارته (سعدا) اليهودي وجعله صاحب ديوانه في العراق وسماه (سعد الدولة) وعندما قتل ارغون صدرت الاوامر بقتل اليهود في انحاء المملكة . وعقب ارغون اخوه (كيخاتو خان) وكان مبذرا في اموال الدولة منهمكا في اللذات وعندما قتل صار الحكم لبيدوخان ثم لاحمد خرابنده ثم لولده (ابو سعيد) الذي مات ولم يخلف ولدا وانقرضت الدولة الايلخانية .

الحكومة الجلايرية

هذه الدولة من اقسام الدولة الايلخانية ، اسسها في العراق وبلاد العجم الامير (الشيخ حسن الجلايري) او حسن الكبير . وكان الشيخ حسن واليا على الانضول من قبل ابي سعيد آخر ملوك الدولة الايلخانية . وعندما توفي ابو سعيد اتخذ الشيخ حسن بغداد مقر سلطنته وخضعت لحكمه الموصل ودام حكمه ١٧ سنة وتوفي سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م فخلفه ابنه (اويس) الذي حكم ١٩ سنة وتوفي سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م وخلفه ابنه السلطان حسين فملك ٨ سنوات وخرج عليه اخوه (احمد) وقتل حسينا وكثيرا من الامراء والحاشية والتجأ بعضهم الى تيمور بستمر خونه على السلطان احمد فاجابهم تيمور واقبل بعساكره ولما علم السلطان احمد بذلك فر الى مصر والتجأ عند السلطان برقوق ولقي منه كل اكرام وتعزيز .

السلطان آويس

كان اويس بن الشيخ حسن باشا جميلا ؛ واهل بغداد يرغبون في مشاهدته حينما يخرج راكبا فرسه . يراقبون ذلك فيهرعون للنظر الى محياه وصورته الجميلة . وكان صاحب ذوق وثقافة ماهرا ، ومبدعا في الموسيقى ؛ وخطه الواسطي يحير الخطاطين المحذاق ان يماثلوه . وكانت زوجته ؛ تسمى (مخدوم شاه) وتلقب (ايكجي) ؛ زوجها السلطان آويس لسليمان بك ولقب بـ (سليمان اتابك) اي امير الامراء . ومن اعمال مخدوم شاه العمارة المعروفة بـ (الايكجية) وهي عمارة سوق الغزل في بغداد ، وايكجية بمعنى اصحاب المغازل . كما انشيت جامع الخلفاء وبنت مدرسة لا يعرف مكانها الان . وبنت دار الشفاء على جانب نهر دجلة . وبنى السلطان احمد في وجهها (القلندرخانة) المعروفة بـ(المولى خانة) او المواوي خانه واصبحت تكية الدراويش؛ثم تحولت الى جامع سمي بـ (جامع الاصفية) نسبة الى الوالي التركي داود باشا المنعوت بـ (اصف زمانه) . وبنت عمة السلطان احمد المسماة (ونا خاتون) جامع الوفائية الواقع في سوق الكبابية ؛ وقد سمي بعد ذلك باسم من قام بعمارته من ولاة بغداد (مسجد الاسماعيلية) .

المعاهد في العهد الجلايري

كان (الخواجة امين الدين مرجان) بن عبد الله بن عبد الرحمن الاولجايتي) واليا على بغداد في عهد السلطان اويس . وقد ساس مرجان المملكة احسن سياسة تأمن السبل وبنى العمارات وخلد كثيرا من اعمال الخير والاحسان حتى وفاته سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م . ودامت امارته لبغداد ست سنوات .

بنى مرجان مدرسة في بغداد نجاءت لتحل محل المدرسة النظامية التي مضى على تأسيسها ثلاثة قرون وبدأت وصارت اثرا بعد عين . وكان البناء في هذه المدرسة اكثر تنسيقا واجمل زخرفة من المدرسة المستنصرية وان كانت اصغر منها مساحة ؛ فهي مربعة الشكل عدا زاويتها الشمالية التي كانت مبتورة .

تقع هذه المدرسة اليوم في منتصف شارع الرشيد تقريبا مقابل شارع السوق في بغداد . والمدرسة باب عالية كباب المدرسة المستنصرية ؛ مزخرفة بزخارف آجرية مخرمة دقيقة الصنع مكونة من اشكال هندسية مختلفة الانواع . وتقع على يسار باب المدرسة المذكورة ، وفي الجهة الجنوبية من المدرسة الاصلي وكان محرابها في غاية الدقة والابداع الزخرفي . وقد هدم هذا القسم لغرض تعديل استقامة شارع الرشيد .

ومن اوقاف هذه المدرسة خان يقع في شارع السوال يعرف بـ (خان مرجان) وسمي قديما (خان الاورنعة) اي الخان المغطى باللغة التركية وذلك لوجود عقادة تغطي ساحة الخان ؛ وهذه العقادة فريدة من نوعها لوجود فتحات للنوافذ على جانبيها . وقد تم انشاء الخان سنة ٧٦٠هـ/١٣٥٨م . ويحيط بهو الخان عدد من الشرف موزعة في طابقين يفصل بينهما طنف (شرفة) يستند على سلسلة حوامل مقرنصة وافاريز بديعة ؛ تخرج من الجدار بصورة تدريجية الى ان تتباعد عنه بما يقرب من المتر ؛ وترتفع بمقدار اربعة امتار عن سطح الارض . ان هذا الخان بهوه الكبير وطنفه البديع وسلسلة عقاداته الجميلة يعد اثرا معماريا نفيسا تعتز به بغداد .

وبنى مرجان (دار الشفاء) وكانت في موقع (قهوة الشط) على نهر دجلة في نهاية شارع السوال: وقد زالت معالمها واصبحت محلا للاعمال التجارية ومقهى في الطابق الاعلى . وكان ثلثا وقف مرجان لهذه الدار والثلث الاخر للمدرسة المرجانية .

ومن اعمال السلطان آويس تعمير مشهد الكاظمين سنة ٧٦٩هـ وبناء قبتين ومنارتين لهذا المشهد ووضع صندوقين من الرخام على القبرين الشريفين ؛ وتزيين الحرم بالقاشاني وتعمير الرواق والرباط .

ومن المساجد والجوامع التي يرجع لهذا العهد ـ

ـ جامع (سيد سلطان علي) ويسمى (الشيخ علي) وهو شقيق السلطان احمد بن حسين بن آويس . وقد اعلن نفسه سلطانا في بغداد ؛ وهذا الجامع يطل على نهر دجلة في مرافق دار الخلافة العباسية في بغداد .

ـ جامع محمد الفضل ، وقد انشأه محمد بن فضل الله الخواجة رشيد . والفضل والسيد سلطان علي اخوان ؛ وفي هذا الجامع مدرسة .

ـ جامع الشيخ سراج الدين . اشتهر سراج الدين عمر القزويني الدوني سنة ٧٥٠هـ في تدريس الحديث وعلومه وصنف فيه الكتب ؛ وقد عمر هذا الجامع الوزير التركي حسن باشا سنة ١١٢١هـ ـ

ـ جامع العاقولي : وابن العاقولي هذا درس في المستنصرية وانتهت اليه رئاسة العلم والتدريس ببغداد ؛ توفي سنة٧٦٨هـ/١٢٦٦م ولا يزال ضريحه قائما في هذا الجامع ، وللجامع منذنة بديعة البناء متناسقة الابعاد .

ـ جامع النعماني : يقع هذا الجامع في شارع الكيلاني وله منذنة مطلة على الشارع ، ويرجع الى (حسام الدين النعماني) احد احفاد النعمان بن ثابت الفرغاني ٧٨٢هـ/١٣٨١م .

الدولة التيمورية

ولد تيمور سنة ٧٣٦هـ وكان جده وزيرا عند (جغطاي بن جنكيزخان) . وقد تولى تيمور بعض الاعمال في دولة جغطاي في ما وراء النهر ثم صار وزيرا فطمع في الملك وحمل على العالم وعمل السيف في رقاب الناس وهدم المدن والامصار واستولى على خراسان وجرجان ومازندران وسجستان وافغانستان وفارس واذربيجان ، ثم جاء الى العراق وقضى على الدولة الجلايرية ؛ وبعدها تحول نحو الشرق واستولى على الهند وغزا كشمير ودلهي ؛ ثم رجع الى الشرق وحارب السلطان العثماني بايزيد واسره سنة ٨٠٤هـ واكتسح سائر بلاد الشرق الى آخر حدود الشام وبايعه سلاطين مصر على الطاعة .

وعندما توجه تيمور الى الصين مات في الطريق سنة ٨٠٧هـ ١٤٠٤م وخلفه ابنه (ميرانشاه) ، فخرجت في زمنه طائفة (قره قويونلو) بقيادة (قره يوسف التركماني) وانتصرت عليه وقتل ميرانشاه سنة ٨٠٩هـ ؛ كما قتلت حفيده السلطان احمد الايلخاني وشتتت اصحابه فاستقر لها الملك في اذربيجان والعراق ودامت سلطنتها ٤٨ سنة انتهت بظهور دولة (الاق قويونلو) اي الخروف الابيض بقيادة (علاء الدين التركماني) ؛ وقد توسعت هذه الدولة في زمن (حسن بك) المعروف بـ (ازون حسن) الذي حارب العثمانيين وانتصر عليهم . وقد انقرضت هذه الدولة على يد الشاه (اسماعيل الصفوي) سنة٩١٤هـ/١٥٠٨م.

هكذا انقرضت دولة تيمورلنك ومن جاء بعدها قبل ان تتمكن من تنظيم امور دولتها فعادت البلاد التي فتحها تيمور الى ملوكها الاولين ، على ان الدولة التيمورية طال حكمها في ما وراء النهر الى سنة ٩٠٦هـ وتركت آثارا عمرانية سنأتي على ذكرها .

المنشآت الاسلامية في اسيا الوسطى واذربيجان

تتميز اسيا الوسطى واذربيجان بكثرة المنشآت الاسلامية ذات القيمة الفنية المعمارية ، وقد اصاب هذه المنشآت بعض التلف بسبب الحروب التي وقعت في هذه المنطقة ولحدوث الزلازل فيها ؛ ومع ذلك فكل ما بقي سليما منها يمثل تراث الحضارة الاسلامية اذ اجتمعت فيها من فنون البناء وجمال الزخرفة . ففي القرن التاسع للميلاد كان عمال الخليفة العباسي (السامانيون) حكاما مستقلين ، وسموا المدن وشيدوا المساجد والقصور والخانات وغيرها ؛ كما بنوا الضريحة ومزارات فخمة للسامين وابنية خاصة ومدارس لتعليم علوم الدين ؛ واجمل تلك الاضرحة ضريح (اسماعيل السامانى) في بخارى .

كانت بخارى وسمرقند وترمذ واورگنج ومرو اكثر المدن الاسلامية الزاخرة بابنيتها الجميلة المشيدة بالآجر الاحمر ؛ وعندما اصبحت بخارى عاصمة لـ (دولة القراخانيين) شيد فيها (مسجد نمازگاه) في القرن الثاني عشر ؛ كما شيد فيها (مسجد الجمعة) الذي اعيد بناؤه في القرن السادس عشر وسمي بـ (مسجد كلان) ، والمسجد مئذنة يرتفع برجها بمقدار٤٦مترا ؛ وزينت من اسفلها الى اعلاها بزخارف اجرية بمهارة فائقة . وكانت خوارزم في القرن الثاني عشر دولة قوية عاصمتها (اورگنج) ؛ دمرها المغول سنة ١٢٢١م وقد بقي فيها من العهد السابق ضريحان الاول لـ (فخر الدين الرازي) تعلوه قبة انشأ عليها فسقاطا هرمي الشكل له اثنا عشر ضلعا ، بني بالآجر الفيروزي اللون ؛ مطلي بالميناء ؛ والضريح الثاني مرقد (السلطان تكش) وله قبة مخروطية الشكل ومزينة بالآجر الفيروزي ايضا .

واشتهرت مدينة مرو بضريح (سنجر) الذي شيد في سنة ١١٤٠م ؛ هو اعجوبة من اعاجيب الفن المعماري الاسلامي .

وعندما ظهر تيمورلنك جعل (سمرقند) عاصمة له ؛ وتوسط في تخطيطها تخطيطا جديدا . وانشأ فيها مجموعة ابنية سميت بـ (شاه زنده) وكانت معدة لآل تيمور وكبار امرائه . تأسست هذه المقبرة سنة ١٤٢٥م وهي من اجمل المجموعات المعمارية في اسيا الوسطى فيها مسجدان صيفي وشتائي ؛ وفيها ضريح (قاضي زادة الرومي) وضريح (تركان آغا) زوجة تيمور . وفي هذه المجموعة باب منقوش لمسجد (قثم بن عباس) ابن

عم الرسول (ص) وناشر دين الاسلام في سمرقند وما وراء النهر .

وكان ضريح (نور امير) في سمرقند اخر منشآت تيمور ؛ خصص ليكون ضريحا لـ (محمد سلطان) حفيد تيمور المحبوب ، وقد الصق الضريح بمجموعة المدرسة والخانقاه . وبناء الضريح مثمن الاضلاع من الخارج ومربع الشكل من الداخل ؛ يحمل طبلا اسطوانيا عاليا عليه قبة زرقاء مضلعة ؛ وينم الجزء الداخلي العالي للضريح عن مظهر فاخر؛ فالنور الذي ينفذ من الشبابيك المخرمة يضيء المقرنصات البيضاء والقبة ؛ وتحت الضريح يرقد في توابيت تيمور واولوغ بك ومحمد سلطان وغيرهم من المغول .

ترك القرن الخامس عشر ؛ عهد خلفاء تيمور، عددا من المنشآت الرائعة يمتاز الكثير منها بروعة الاشكال وكمال الانسجام وتناسق التكسية الملونة ، واهمها من جهة الفن المعماري مدرسة (اولغ بك) في سمرقند التي اشتهرت بفيفاء البوابة ذات الترابيع الملونة وفيها الشيء الكثير من جمال التصميم والرسم .

يلاحظ ان المدارس في العهد المغولي كانت من اعظم المؤسسات العلمية الدينية ؛ وقد اسست مجموعة منها لنشر المعرفة والثقافة ولم يخل مسجد من مدرسة ولا مدرسة من مسجد ، وقد اوقف اهل الخير الوقوفات الدائمة لبقائها وحفظها للاستفادة منها . ولكن عندما اصبح رجال الحكومة والملوك متشبعين بالثقافة الفارسية ابعدوا عن الحكم رجال الدولة من متخرجي هذه المدارس وقدموا ابناء جلدتهم في مراكز الدولةالحساسة ولم ينظروا الى الكفاءة العلمية ولا درجة الثقافة في العلوم والصناعة . وقد ترك العراقيون المناصب الحكومية ومالوا الى وظائف الامامة والخطابة والوعظ والتدريس وصارت مخصصاتهم لا تكفي لسد الرمق والحاجة ؛ بينما صار غيرهم ينعم بانواع النعيم وكل خيرات البلاد بايديهم ؛ وهكذا استولت الادارة الفارسية على العراق وانزت على ثقافته ولغته .

اما الابنية في هذا العصر وما فيها من زينة ونقوش فان امثلتها على قلة الباقي من الاثار كافية لاظهار بدائع الصناعة والنقش والخط ؛ كما ان احكام مادة البناء وصناعة الهندسة دليل عظمة هذا الفن .

لقد شيد هذا العهد تركيزا لشكل المآذن التي ترتفع فوق قاعده ذات اربعة او ثمانية اضلاع يعلوها برج دائري مرتفع جدا ، يأخذ بالتضييق من القاعدة حتى الذروة ؛ ويقوم عند الربع الثالث منها طنف مزين بالمقرنصات ويحمل شرفة للاذان ويعده طنف آخر بارز فوقه يسبق ذروة المئذنة المؤلفة من قبة صغيرة . وقد استعمل الآجر بكثير من التوفيق كمادة للزخرفة ؛ فحقق البناؤون زخرفة جميلة عن طريق انحراف متعاكس لصفوف الآجر بصورة غائرة او نافرة او بطريقة تضمين كل صفين من الآجر الزهري صفا ملحتا ذا لون اخف حدة وحافلا بالصيغ المتشكلة . وكانت معامل الخزف القاشاني في ري وجرجان تنتج احسن انواع القاشاني ذي البريق المعدني لاستعماله في زخرفة المساجد والمراقد .

اما فن الموسيقى فان اصل تمكنه ورسوخه يرجع الى عهد (صفي الدين عبد المؤمن) ايام العهد المغولي ؛ ففي ايامه كتبت قواعده تثبيتا وانالها شكلا علميا ؛ وكان السلطان احمد نابغة في هذا الفن .

المغرب العربي

بعد ان استعرضنا وضع البلاد الاسلامية في اقصى الشرق ننتقل الى الممالك الاسلامية في اقصى الغرب . لقد جاء فتح المسلمين للمغرب العربي متاخرا بالنظر لبعدها عن مركز الخلافة . استطاع (حسان بن النعمان) فتح هذه البلاد سنة ٧٧هـ/٦٩٦م في خلافة عبد الملك بن مروان ، ومنها عبر (طارق بن زياد) لفتح الاندلس . قامت في مراكش ؛ دولة الادارسة ؛ ؛ وكان مؤسسها (ادريس بن عبدالله بن الحسن) الذي فر من وجه الخليفة المهدي واستعان بقبائل البربر على تاسيس دولته . وانشأ ابنه (ادريس الثاني) جامع (القرويين) في مدينة فاس سنة٢٤٥هـ/٨٥٩م وجعل في حرم الجامع ٣٠عمودا ؛ وفيه مكتبة تضم الاف الكتب والمخطوطات .

وقامت بعد دولة الادارسة في المغرب (دولة المرابطين) وكان مؤسسها (يوسف بن تاشفين ؛ وقد استمر لها الحكم من سنة ١٠٥٦ الى ١١٤٨م . وقد عرفوا بالملثمين . اسس المرابطون مدينة مراكش في سنة ١٠٦٢م واتخذوها عاصمة لهم ؛ وبنى فيها (علي بن يوسف بن تاشفين) مدرسة كبيرة تعرف اليوم بـ (الجامعة اليوسفية) ، وكان تاسيسها سنة ١١١٦م ؛ وقد زينت جدرانها الوردية

بالفسيفساء والمرمر والاخشاب المنقوشة نقشا بديعا يدل على مهارة وفن .

وظهرت بعد ذلك في المغرب (دولة الموحدين) وكانوا شديدي التعصب في احكام الدين . وقد ضموا الاندلس الى املاكهم وزادوا في عمارتها وبناء المساجد والمدارس فيها ولكنهم احتفظوا بمراكش كعاصمة لهم ؛ وكان مؤسس هذه الدولة الحقيقي (عبد المؤمن) ١١٣٠ - ١١٦٣ بنى في مراكش مارستانا اتقن فيه النقوش البديعة والزخارف المحكمة ؛ كما احدث (بستان المسرة) وهو من منتزهات مراكش ومفاتنها ، طوله ثلاثة اميال وعرضه قريب من ذلك ؛ جاب اليه الماء وزرع فيه جميع انواع الاشجار المثمرة . كما بنى (مسجد الكتبية) الذي يعد التحفة النادرة في مدينة مراكش . ولهذا المسجد منذنة رشيقة تم بناؤها سنة ١١٩٦م ، والبناء بحجر الفشم وهي لا تختلف من حيث الترتيب والتنسيق عن منذنة اشبيلية (الجيرالدا) .

ومن آثار الموحدين الخالدة (جامع حسان) الذي بناه (يعقوب المنصور) في الرباط ؛ ولهذا الجامع صومعة (منذنة) شامخة مربعة الشكل ارتفاعها ١٤٥ قدما ، في وسطها سلم يرقى الى اعلاها ، والبناء من الحجر المنحوت وزخارفها شبكة من معينات متجاورة وهي من مميزات الفن المغربي.

انقسام دولة الموحدين

انقسمت دولة الموحدين الكبيرة في النصف الاول من القرن الثالث عشر الى اربع دول ظلت قائمة بين ضعف وقوة خلال ٨٠٠ عام . ففي تونس كانت السلطة الى (حفصيين) الورثة الشرعيين للموحدين . كما اصبحت تلمسان عاصمة لاسرة (بني عبد الواد) و (الزيانيين) ، غير ان بعض السلاطين ؛ وهم (بنو مرين) اقاموا في المغرب وحكموا (فاس) ؛ فكانوا اكثر الملوك باسا واوفرهم ثروة وصاروا سادة بلاد المغرب .

ترك بنو مرين بعض الاثار التي تبدو بعض المعالم فيها موروثة عن العصر الذي سبقهم ، كالقبة المعرقة في المسجد الكبير في (تازه) وفي المسجد الكبير في (فاس الجديدة) . كما شيدوا (مسجد المنصورة) سنة ١٢٣٦م . وتقع مدينة المنصورة عند ابواب تلمسان ، ومئذنة هذا الجامع المبنية بالحجر المذهب واقعة في منتصف واجهة البناء وينفتح الباب الرئيس للجامع من تحت هذه المئذنة بتصميم موثق مشكلا اساس زخرفتها الجميلة المحلاة بالقاشاني .

والشهرت تلمسان بجامعها الذي يعتبر قطعة جميلة من الفن المعماري الاندلسي الذي انتقل الى شمال افريقية بنى هذا الجامع (ابو يغمو يوسان) من بني زيان سنة ١١٣٦م وزاد عليه (علي بن يوسف بن تاشفين) كثيرا من الزخارف والنقوش ومحراب هذا الجامع قطعة مصغرة من محراب جامع قرطبة ؛ وابرز ما في هذا البناء الاقواس التي عقدت على شكل حدوة الفرس وهي ذات مقرنصات جميلة ، كما ان قبة الجامع التي تتقدم المحراب فيها تخريم جميل معقد وتتكون من ستة عشر قوسا .

وكان لـ (ابي حمو الثاني) قصر جميل في تلمسان ، فيه ساعة غريبة الصنع وخزانة منجانة ذات تماثيل من الفلجين محكمة ؛ باعلاها ايكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحه ؛ وفيها ارقم خارجة من كوه بصدرها ابواب مجوفة ، عدد ساعات الليل الزمانية ؛ وقد وصفها يحيى بن خلدون فقال (حيل احكمت به الهندسة صنعها) .

انشاء المدارس والزوايا

قام بنو مرين بانشاء عدد وافر من المدارس في المدن الهامة ؛ في فاس ومكناس وتازة وتلمسان والجزائر وغيرها ؛ اهمها (مدرسة الصهريج) و (مدرسة العطارين) و (مدرسة بوعنانية) وهذه اكثر المدارس فخامة ؛ فهي مسجد كما هي معهد وفيها مئذنة ومنبر ؛ واشتهرت بساعاتها الشمسية الغريبة الصنع .

وكانت ابنية المدارس اشبه ببناء المدرسة المستنصرية ؛ فيها ايوان مفتوح على صحن مركزي في وسطه بركة ماء ، ويحيط بالصحن اروقة تتفتح عليها حجرات ؛ وتمتد على احد الجهات قاعة كبرى فيها محراب تجمع بين الصلاة والدراسة .

وفي المغرب زوايا اشبه بالخانقاه يلجأ اليها الدراويش وهي مكان اعتزالهم . وتنشأ الزاوية حول مدفن ولي من الاولياء الصالحين او مؤسس طريقة من الطرق الدينية . وفي القيروان اصبحت (زاوية البالوى) اكثر الزوايا ارتيادا ، ويشمل البناء عدا الدفن مسجدا ومدرسة وغرف للحجاج وفي تونس كان (سيدي قاسم الجاليزي) يجمع مريديه خلال حياته في الزاوية التي دفن فيها عام ١٤٦٧م . كما يوجد في قرية العباد الواقعة قرب تلمسان زاوية واسعة وجدت بوجود ضريح (سيدي بومدين) وفيها مسجد ومدرسة وحمامات وبيوت للضيافة .

ويطلق في المغرب اسم (شلة) على الزاوية او الرباط ؛ وقد اقام بنو عماد شلة عند باب مدينة الرباط الموحدية ؛ وقد اصبحت بعد ذلك مقبرة لامراء المغرب وفي هذه الشلة مجموعة من المدافن والمصليات ؛ ولها صحن فيه بركة ماء تحيطها حجرات وحرم حيث يقوم العاكفون بالصلاة وتلاوة الادعية .

المعمارات العسكرية المغربية

تشتمل المعمارات العسكرية حسب التقاليد الموحدية دون اضافة شيء هام اليها ؛ وان اكثر التحصينات العسكرية ترجع الى القرن الثالث عشر والرابع عشر ؛ كحصون فاس الجديدة التي شيدت سنة ١٢٧٦ وحصن المنصورة وحصن شيلة وهي مقبرة بني مرين . شيدت سنة ١٣٣٩م . وحصن جبل طارق مع البرج القائم في القلعة الحمراء . ولحصون فاس الجديدة شكل يتميز عن بقية الحصون بسور مزدوج من الطين الدك ، وله ابراج تتجاوز بدانات السور الى ثلث ارتفاعها ، والبابا بالوحيد من السور ، المبني من الحجر المنحوت ينفتح بين برجين مربعين او مضلعين ؛ وهو يؤدي الى مجموعة من الدهاليز المظلمة المغطاة بصورة عامة بقبوات متصالبة . وفوق الجدران طريق للحراسة محمي بطلف من الشراريف ؛ واكثر مداخل هذه المدينة ملتوية .

وتشتهر مدينة فاس بمنازلها المتلاصقة ليس لها نوافذ على الخارج ؛ ويتكون كل دار من غرف وصالات للاستقبال تتوسطها ساحة مكشوفة تستقبل نور الشمس والهواء ؛ وفي وسط الساحة حديقة ونافورة ماء ، والطابع الغالب على اكثر البيوت هو الطابع الاندلسي ويرجع السبب في هذا الى ان مدينة فاس كانت ملجأ الفارين من الاندلس بسبب اضطهاد بعض ملوكها الجائرين ، ولهذا امتزجت في ابناء الفنون الاندلسية بالفنون المغربية الاصيلة .

والمدينة مكتاسي باب تعرف بـ (باب النصر) وهي بناء فخم يعد آية في الفن والزخرفة واتقان الصنعة . وللمدينة حصن منيع طوله ٤ كيلومترا، وفي وسط المدينة ضريح (المولى ادريس الثاني) مؤسس المدينة ؛ زينت جدرانه بارزع النقوش ، ويتصل هذا الضريح بجامع كبير فيه جناح خاص للنساء .

هذا وسوف نقدم في الحلقة القادمة التطور الذي حدث في فن العمارة العربية الاسلامية في الفترة الرابعة من فترات هذا التطور .